ماهر الشريف *

أسطورة اختراع إسرائيل

Sand, Shlomo. ***Comment la terre d'Israël fut inventée: De la terre sainte à la mère patrie.*** **Traduit de L'hébreu par Michel Bilis.** Paris: Editions Fayard, 2012. 514 Pages.

شلومو ساند واحد من المؤرخين الإسرائيليين الجدد الذين يسبحون عكس التيار السائد في مجتمعهم المنقاد، في معظمه، وراء السياسات الاستعمارية والاستيطانية التي يمارسها حكّام دولة إسرائيل. وعلى الرغم من كونه متخصصاً بالتاريخ المعاصر، فإنه غامر وخاض غمار التاريخ القديم واضعاً لنفسه هدفاً يتمثّل في دحض الأساطير التي تقوم عليها الرواية التاريخية الصهيونية، ولا سيما أن سيرورات المشروع الصهيوني الممتدة عبر زمن طويل لم تحظَ ـ مثلما لاحظ ـ بالاهتمام، كما أن الأبحاث النادرة التي حاولت أن تضع موضع الشك الأسس التي قام عليها التاريخ القومي لم تترك أي صدى.

حكايات من واقع الحياة

وتتميّز كتابات هذا المؤرخ في كونها لا تقتصر على السعي لتزكية الافتراضات التي ينطلق

* باحث فلسطيني.

اطّلع المراجِع أيضاً على النسخة العربية من هذا الكتاب المترجمة عن العبرية:
شلومو ساند، "اختراع 'أرض إسرائيل' "، ترجمة أنطوان شلحت وأسعد زعبي (رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية / مدار، ٢٠١٣)، ٣١٤ صفحة.

منها باللجوء إلى منهج علمي في البحث، بل تشمل أيضاً إيراد حكايات نابعة من واقع الحياة، ومن الأحداث التي شهدها بنفسه، وهي حكايات ووقائع تضفي مسحة إنسانية على كتاباته.

ففي كتابه: "كيف اختُرع الشعب اليهودي"،** يحكي شلومو ساند حكاية والده شوليك الذي صار اسمه في إسرائيل شاؤول؛ فالأب وُلد في مدينة لودج في بولونيا في سنة ١٩١٠، وانتمى إلى الحركة الشيوعية، واعتُقل ستة أعوام بتهمة نشر الأفكار الثورية، ولجأ خلال الحرب العالمية الثانية إلى الاتحاد السوفياتي، حيث أُرسل إلى أوزبكستان، ومنها عاد، بعد انتهاء الحرب، إلى بولونيا للإقامة في معسكر للاجئين، وذلك قبل أن تسفّره الوكالة اليهودية في نهاية سنة ١٩٤٨، مع زوجته وابنيه، إلى حيفا عن طريق مرسيليا. وفي إسرائيل، بقي، إلى حين وفاته، شيوعياً، يتحدث الييديشية مع عائلته وأصدقائه المقرّبين، ويشعر بأنه سلب أرض الآخرين.

كما يحكي لنا، في الكتاب ذاته، عن علاقة الصداقة التي ربطته بالشاعر محمود درويش، وكيف ذهب، بعد أن كان قد شارك في معارك احتلال القدس، خلال حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧، لزيارة الشاعر الفلسطيني في بيته في حيفا، حيث أمضيا معاً ليلة بيضاء يشربان ويدخنان؛ وخلالها، عبّر الجندي شلومو عن قرفه من صرخات النصر التي تعالت في إسرائيل بعد الحرب، وعن يأسه وشعوره بالاستلاب في هذه الأرض التي تسيل فيها الدماء، وعن رغبته في مغادرة البلد. وفي اليوم التالي، عند منتصف النهار، أيقظ الشاعر صديقه الجندي وترجم له القصيدة التي كتبها في الفجر عن "جندي يحلم بالزنابق البيضاء"، والتي ورد فيها:

يفهم – قال لي – إن الوطن
أن أحتسي قهوة أمي..
أن أعود في المساء.
سألته والأرض؟
قال: لا أعرفها

وفعلاً، غادر الجندي البلد بعد أن كان قد سبقه الشاعر الذي لم يعد قادراً على تحمّل الحصار البوليسي حوله، إلى الرحيل، فسارعت السلطات الإسرائيلية إلى حرمان هذا الأخير من مواطنيته الإسرائيلية المشكوك في أمرها أصلاً. وبينما صار الشاعر، في مشواره الطويل، يتنقل ما بين العواصم، حاملاً مجده المتعاظم باستمرار، إلى أن سُمح له، بعد اتفاق أوسلو، بالعودة للاستقرار في رام الله، والقيام بين الحين والآخر بزيارات خاطفة إلى موطنه الأصلي، عاش صديقه الجندي عدة أعوام في باريس، حيث تابع دراساته، إلى أن دفعه الحنين إلى العودة إلى المدينة التي تربّى فيها.

** صدر بالفرنسية:

Shlomo Sand, Comment le peuple juif fut inventé (Paris : Fayard, 2008), 446 Pages.

وبالعربية:

شلومو ساند، "اختراع الشعب اليهودي"، ترجمة سعيد عيّاش، تدقيق أسعد زعبي، مراجعة وتقديم أنطوان شلحت (رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية / مدار، ٢٠١٠)، ٤١٥ صفحة.

في كتابه الجديد: "كيف اختُرعت أرض إسرائيل"، يحكي لنا شلومو ساند حكاية قرية الشيخ مونّس الفلسطينية التي أقيمت على أنقاضها جامعة تل أبيب التي يُدرّس فيها ويسكن بالقرب منها، فيذكر أن الحياة انطفأت في هذه القرية العربية في ٣٠ آذار / مارس ١٩٤٨، واختفى سكانها ودُفعوا إلى مجاهل النسيان وتلاشوا من صفحات تاريخ "أرض إسرائيل". فمنازل القرية وبساتين الحمضيات فيها لم تعد موجودة، علماً بأن موقعها تحدد في خريطة وضعها بيير جاكوتان، رئيس فريق المهندسين والرسامين الذي رافق جيش نابليون بونابرت لدى غزوه المنطقة في سنة ١٧٩٩، ثم ظهر اسمها في كتاب الرحلات الذي وضعه جاكوب بيرغرن، وهو كاهن عالِم من السفارة السويدية في إستانبول، قام بزيارة فلسطين في سنة ١٨٢١. وكان عدد سكان هذه القرية ٢١٦٠ نسمة قبل اقتلاعها في سنة ١٩٤٨، وتميزوا بموقفهم المعتدل والمتسامح إزاء الاستيطان الصهيوني الآخذ في الاتساع، وبعدم مشاركتهم في الصدامات التي اندلعت بين العرب واليهود بعد صدور قرار التقسيم. بيد أن موقفهم هذا لم يشفع لهم لدى قادة الهاغاناه الذين عبّروا عن قلقهم إزاء وجود قرية عربية بالقرب من ميناء تل أبيب، والذين كانوا قد تبنّوا الخطة "دالت" بهدف القيام بتطهير عرقي وخلق تواصل جغرافي خاضع للسيطرة الصهيونية. وهكذا راحت تنتشر شائعات تهدف إلى تبرير الهجوم على القرية، ودفع سكانها إلى الهرب وتركها. وفعلاً، قامت وحدات الهاغاناه وعناصر من منظمة "ليحي" بمحاصرة القرية واحتلال بعض المنازل في أطرافها في ٢٠ آذار / مارس، الأمر الذي دفع سكانها إلى الخروج منها، وقد وصل قسم منهم إلى قلقيلية وطولكرم، بينما توزع آخرون في قرى "المثلث" مثل الطيرة وجلجولية، ووصل بعضهم إلى مخيمات اللاجئين في قطاع غزة، في حين نجح بعضهم الآخر في الوصول إلى الولايات المتحدة الأميركية وكندا. وصادرت السلطات الإسرائيلية أملاكهم الكثيرة.

ويتساءل شلومو ساند: لماذا إيراد حكاية قرية الشيخ مونّس التي لم تكن استثناء، بعد تدمير أكثر من ٤٠٠ قرية أُخرى ومحوها من "أرض إسرائيل" خلال حرب ١٩٤٨، وأحياناً بعد انتهاء المعارك، وبعد أن تمّ اقتلاع نحو ٧٠٠,٠٠٠ شخص خلال النكبة ومصادرة منازلهم وأراضيهم من دون أي تعويض أو مقابل؟

ويجيب أنه توقف عند حكاية هذه القرية بالتحديد لأن على أراضيها أقيم "متحف أرض إسرائيل"، و"متحف البالماخ"، و"المتحف الإسرائيلي التابع لمركز رابين"، و"بيت الشتات ـ متحف الشعب اليهودي". والغاية من هذه المتاحف الأربعة هي الحفاظ على الماضي اليهودي، والصهيوني والإسرئيلي، وإبرازه. فالهدف الرسمي لـ "بيت الشتات ـ متحف الشعب اليهودي"، الذي أقيم في سنة ١٩٧٨ في قلب حرم جامعة تل أبيب، هو: "عرض وتمثيل تاريخ الشعب اليهودي الذي يتواصل منذ أربعة آلاف عام"، من دون أي إشارة إلى تاريخ المكان الذي أقيم المتحف فوقه.

ويؤكد شلومو ساند أنه يعمل في جامعة تل أبيب منذ ٢٦ عاماً، وأنه يحب التعليم فيها، ولا يعتقد، ولا ينصح بإزالة جامعة لتقام مكانها قرية وبساتينها. كما لا يعتقد أنه سيكون في وسع أحفاد اللاجئين الفلسطينيين العودة بشكل جماعي على نطاق واسع إلى الأماكن التي عاش فيها أجدادهم. لكنه يرى أنه مثلما يتوجب على دولة إسرائيل الاعتراف بالمأساة التي تسبب قيامها بها للآخر، الفلسطيني، ودفع ثمن لقاءها في إطار عملية السلام المأمول، فمن العدل أن تثبّت جامعته أمام بواباتها لوحة تذكارية مهداة إلى الذين طُردوا من الشيخ مونّس، القرية الوادعة

التي اختفت كما لو أنها لم توجد قط.

اختراع الشعب اليهودي

قبل أن يسعى لتبيان كيفية اختراع مصطلح "أرض إسرائيل"، كان شلومو ساند قد أشار في كتابه: "كيف اختُرع الشعب اليهودي"، إلى أن الذاكرة التي غُرست، على مر السنين، في وعي كل إسرائيلي من أصل يهودي، جعلته يتيقن، من دون أن يساوره أي شك، من أن الشعب اليهودي وُجد منذ أن تلقّى التوراة في سيناء، وأنه شخصياً متحدر بصورة مباشرة وحصرية من هذا الشعب الذي خرج من مصر واستقر في "أرض إسرائيل"، "الأرض الموعودة" التي غزاها الشعب اليهودي وأقام عليها مملكة داود وسليمان، قبل أن تنقسم هذه المملكة على نفسها إلى مملكتَي يهودا وإسرائيل، والتي عرف شعبها فيما بعد النفي في مناسبتين: بعد تدمير الهيكل الأول في القرن السادس قبل الميلاد، وبعد تدمير الهيكل الثاني في سنة ٧٠ ميلادية، وعاش التشرد في عدة بلاد طوال ما يقرب من ألفي عام، إلى أن نضجت، في نهاية القرن التاسع عشر، الأوضاع التي أيقظته من سباته العميق، وجعلته قادراً على العودة إلى أرض موطنه القديم، التي كانت أرضاً بكراً وخالية صار عليه أن يحوّلها إلى أرض خصبة ومزهرة.

وخلافاً لأسطورة وجود شعب يهودي مغترب ومشتت، سعى شلومو ساند، في كتابه المذكور، لتزكية فرضية فحواها أن اليهود شكّلوا دوماً تجمعات دينية مهمة في مناطق متعددة من العالم، لكنهم لم يشكّلوا "إثنية" حملت أصلاً واحداً وتنقلت به عبر تشردها ومنفاها الدائمين. وخلص، في نهاية كتابه، إلى أن أسطورة "الإثنية" اليهودية التي ترى نفسها جسماً تاريخياً منغلقاً على نفسه، استطاع دوماً أن يحول دون تسرب غرباء إليه، هي أسطورة تجري في عروق دولة إسرائيل وتهدد بتقويضها من الداخل. فالمحافظة على هوية "إثنية" مغلقة، واستبعاد ربع سكان البلد من العرب وغيرهم من المواطنين الذين لا يُعتبرون يهوداً بحسب التوراة و"التاريخ"، يخلقان توترات شديدة يمكن أن تتحوّل في المستقبل إلى تصدعات وشروخ عنيفة سيكون من الصعب رأبها.

ظهور مصطلح "أرض إسرائيل"

في توطئة كتابه الجديد، يطرح شلومو ساند الأفكار / الافتراضات التي سيسعى لتزكيتها في الفصول اللاحقة؛ فينطلق من أن أسطورة أرض الآباء، التي غُيّبت إلى حد ما بعد إقامة دولة إسرائيل، عادت بقوة إلى مركز الاهتمام في الحيز العام الإسرائيلي بعد اندلاع حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧. فبعد تلك الحرب، صار عدد كبير من الإسرائيليين يرى أن أي نقد لغزو القدس القديمة، واحتلال الخليل وبيت لحم، سيفضي إلى نزع الشرعية عن سيطرة اليهود السابقة على يافا وحيفا وعكا، وهي مدن تتمتع بأهمية أقل في فسيفساء علاقة الصهيونية بالتاريخ الأسطوري. وبعد أن يؤكد قناعته بأن الصهيونية لم تنجح في خلق قومية يهودية عالمية، وإنما نجحت في خلق قومية إسرائيلية، وإن كانت تصر على نفي وجودها، يشير إلى أن هدف كتابه الجديد هذا هو اكتشاف طرائق اختراع "أرض إسرائيل" في استعاراتها كفضاء إقليمي تمارس فيه سلطة الشعب اليهودي،

الذي هو بدوره اختراع ناتج من سيرورة تركيب أيديولوجي.

إن مصطلح "أرض إسرائيل"، الذي لم يتوافق يوماً ـ ولا يتوافق اليوم ـ مع الأرض الخاضعة لسلطة دولة إسرائيل، أُطلق في اللغة العبرية منذ وقت طويل على المنطقة الواقعة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط، وحتى على مناطق واسعة شرق نهر الأردن. وقد وجّه هذا المصطلح الفضفاض التخيّل الإقليمي للاستيطان الصهيوني منذ بداياته قبل أكثر من قرن، ومن الصعب على الذين لا يمتلكون معرفة اللغة العبرية ـ كما يؤكد ساند ـ أن يدركوا جيداً وزن هذا المصطلح في الوعي الإسرائيلي.

فعلى رفوف دور الكتب والمكتبات الجامعية نجد، جنباً إلى جنب، مجلدات عن "أرض إسرائيل في عصور ما قبل التاريخ"، وعن "أرض إسرائيل في عهد مملكة الصليبيين"، وعن "أرض إسرائيل في زمن الغزو العربي"، إلخ. وعندما تُترجم الكتب الأجنبية إلى العبرية تُستبدل كلمة "فلسطين"، بصورة منتظمة، بمصطلح "أرض إسرائيل"، وهو ما يحدث أيضاً لدى نشر كتابات كبار الصهيونيين، مثل ثيودور هيرتسل وماكس نوردو وبير (Ber) بوروخوف، وغيرهم، الذين استخدموا كلمة "فلسطين" التي كانت شائعة في زمنهم.

ويرى شلومو ساند أن عدداً قليلاً من الإسرائيليين مستعد للإقرار بأن القدس والخليل وبيت لحم وضواحيها لا تشكّل في النصوص التوراتية جزءاً من "أرض إسرائيل" التي تقتصر على منطقة السامرة، أي على أرض مملكة إسرائيل الشمالية. وفي جميع القصص التوراتية، تمّ الحفاظ على اسم المنطقة كما كان شائعاً في زمن الفراعنة، أي "بلاد كنعان"، أمّا القدس فكانت قائمة على أرض مملكة يهودا، ولم يفكر أي كاتب من كُتّاب أسفار التوراة في أن يطلق مصطلح "أرض إسرائيل" على المنطقة المحيطة بالمدينة المقدسة.

ويقدّر المؤلف أن مصطلح "أرض إسرائيل" هو اختراع مسيحي وراباني، أي كان اختراعاً أيديولوجياً برز في وقت متأخر، ولم يكن قط مصطلحاً سياسياً، ويفترض "بحذر" أنه ظهر للمرة الأولى في "العهد الجديد"، في إنجيل القديس متّى، الذي لعله يعود إلى نهاية القرن الأول الميلادي، علماً بأن معظم أناجيل العهد الجديد يميل إلى استخدام مصطلح "أرض يهودا". بيد أن مصطلح "أرض إسرائيل" المسيحية والرابانية اكتسب معنى مختلفاً عن المعنى الذي أُعطي له في عصر الأمم. ففي العصور القديمة، وفي القرون الوسطى، كانت مصطلحات مثل "الشعب اليهودي"، و"الشعب المختار"، و"الشعب المسيحي"، و"شعب الله"، تأخذ معنى مختلفاً تماماً عن المعنى الذي يُعطى اليوم لمصطلح "شعب" الحديث، والأمر نفسه ينطبق على "الأرض الموعودة" في التوراة، وعلى "الأرض المقدسة" في التقاليد اليهودية والمسيحية، والتي لا تشبه بأي شكل من الأشكال معنى "الوطن" الصهيوني. فالأرض الموعودة المقدسة تشتمل على نصف الشرق الأوسط تقريباً، من النيل إلى الفرات.

ولم تتخذ "أرض إسرائيل" اللاهوتية شكلها إلاّ في مطلع القرن العشرين، بعد أن بقيت أعواماً طويلة في المطهر البروتستانتي. فالصهيونية الاستيطانية استخرجت هذا الاسم من التراث الراباني، وجعلت منه في لغة المستوطنين الجديدة اسم المكان الوحيد الذي يحق المطالبة بملكيته، وذلك من أجل محو اسم "فلسطين" الذي كان شائعاً ليس في أوروبا كلها فحسب، بل بين جميع

زعماء الصهيونية من الجيل الأول أيضاً. وباللجوء إلى مصطلح "أرض إسرائيل"، ترسّخت في المخيلة الشعبية صورة البلد الفارغ من السكان، صورة "أرض من دون شعب" وُعد بها منذ الأزل "شعب من دون أرض".

إن معظم النقاش في هذا الكتاب سيسعى ـ كما يشير المؤلف ـ لتفكيك مبدأ "الحق التاريخي" والسرديات القومية كلها التي تصاحبه، والتي تهدف إلى إكساب تملّك الفضاء شرعية أخلاقية. فالنزعة القومية اليهودية التي تمردت على العقيدة الدينية اليهودية لجأت إلى توظيف جميع كلمات هذه العقيدة، وقيمها ورموزها وأعيادها وطقوسها. فمنذ انطلاق مشروعها الاستيطاني، احتاجت الصهيونية العلمانية إلى حلّة دينية تمكنّها من حفظ حدود الـ "إثنوس" وتعزيزها، ومن تحديد موقع "أرض الآباء" وحدودها.

إشكالية بناء الأوطان

يخصص شلومو ساند الفصل الأول من كتابه للبحث في كيفية إنتاج الأوطان على مر التاريخ. فيشير بداية إلى أن إشكالية بناء الوطن الحديث شغلت مكانة هامشية نسبياً في السجالات النظرية التي دارت حول الأمة والقومية في نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين، ثم يرصد تطور مصطلح "الوطن" في اللهجات اليونانية القديمة، وانتقاله إلى اللغة اللاتينية القديمة وإلى اللغات الأوروبية التي تفرعت منها، ليخلص إلى أن هذا المصطلح حُمّل، منذ العصر القديم الذي عرفته مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط، مروراً بالعصور الوسطى الأوروبية حتى بداية العصر الحديث، معاني متعددة لم تنطوِ غالباً على الصفات التي طبعته منذ حلول عصر القوميات.

ففي الثقافة اليونانية القديمة كان مصطلح "الوطن" يعني "البوليس" (polis) الواحد وليس مجموع اليونان. فالمدينة / الدولة السيدة، بمؤسساتها ونظام قوانينها، كانت تشكّل "الوطن" الحقيقي، وقد نُظر إلى الرجال الأحرار الذين ولدوا من آباء يتمتعون بالمواطنية، باعتبارهم وحدهم سكان هذه المدينة / الدولة الأصليين، المنضوين في الجسم الانتخابي وفي المؤسسات المنتخبة. ومن ناحية أُخرى، فإن الإخلاص للوطن، باعتباره تعبيراً عن الخضوع لجماعة مواطنين أصحاب حكومة تمثيلية، ميّز أيضاً بعض الأعمال الأدبية في عهد "الجمهورية" الرومانية القديمة. أمّا آباء الكنيسة المسيحية، فأرادوا أن يحل الإخلاص لملكوت السماء محل الإخلاص القديم للمدينة / الدولة اليونانية، أو لجمهورية مالكي العبيد الرومانية. وبدءاً من القرنين الثالث عشر والرابع عشر، بدأ يروج شعار "في سبيل الملك وفي سبيل الوطن"، وبقي شائعاً حتى حلول الثورات الحديثة، علماً بأن توتراً ظل قائماً، حتى في الممالك الأكثر تنظيماً، بين الإخلاص لملكوت السماء والإخلاص لكيانات أرضية خاضعة دوماً لبنى هرمية غير متساوية.

لقد كانت الثورة الفرنسية، وخصوصاً في مرحلتها الجمهورية، محطة مهمة ـ كما يتابع المؤلف ـ على طريق بلورة الوظيفة الجديدة والواعدة التي صار يضطلع بها "الوطن" خلال الأزمان التي أعقبت اندلاعها. فمنذ العاصفة التي هزت فرنسا في مطلع تسعينيات القرن الثامن عشر، حتى الانتفاضات الشعبية في العالم العربي في القرن الواحد والعشرين، كان معظم الثوريين

والمنتفضين يؤكدون تعلقهم الشديد بالحرية ووفاءهم للوطن.

وأضفى تأسيس الدول/ الأمم معنى جديداً على الفضاءات التي مارست عليها الدولة سلطتها، من جهة، وعلى الحدود التي حدّتها، من جهة ثانية. بيد أن التعرّف إلى الوطن، كان يحتاج إلى معرفة القراءة والكتابة، وإلى تملك القليل من "الثقافة القومية"، الأمر الذي جعل وسائل الاتصال الحديثة وأجهزة الدولة الأيديولوجية، وخصوصاً المدارس، تساهم مباشرة في الخلق المنهجي للأوطان وللنزعات الوطنية.

أسطورة أرض وعد الله بها

يرى شلومو ساند، في الفصل الثاني من كتابه، أن كلمة "موليدت" (وطن) وردت تسع عشرة مرة في أسفار التوراة، نصفها في سفر التكوين. ويشير هذا المصطلح، بجميع معانيه، إلى أرض الميلاد، أو الأرض التي يرجع إليها أصل العائلة، ولا نعثر فيه على أي معنى ينطوي على البعد المواطني أو الجمهوري الذي عُرف في ثقافة المدينة / الدولة اليونانية، أو الجمهورية الرومانية القديمة.

وقد وجد أنصار الفكر الصهيوني الذي أخذ يتكون في نهاية القرن التاسع عشر تقريباً، أنفسهم أمام إشكالية معقدة. فانطلاقاً من مبدأ أن التوراة تساوي، في نظرهم، صك ملكية على فلسطين التي غدت "أرض إسرائيل"، توجب عليهم تحويل هذه الأرض، بالوسائل كلها، ليس فقط إلى بلد أصل متخيل نُفي منه جميع اليهود، بل إلى وطن قديم كان في الماضي ملكاً لأسلافهم الأسطوريين أيضاً. وهكذا، اكتسبت التوراة شكلها الجديد باعتبارها كتاباً قومياً.

وطبعاً لم يكن من السهل ـ كما يلاحظ ساند ـ غرس متخيّل وطني في نصوص لاهوتية غريبة كلياً عنه. فقد كان هذا يمثّل مشروعاً معقداً وإشكالياً تكلل، في نهاية المطاف، بالنجاح، لكنه نجاح لا يعود الفضل فيه إلى موهبة مفكرين وكُتّاب صهيونيين بقدر ما يعود إلى الظروف التاريخية التي سيسعى هذا الكتاب، جزئياً على الأقل، لتقصّيها.

إن أسفار التوراة لا تنطوي على أي بعد سياسي يشير إلى وطن دنيوي. ومع أن أرض كنعان يرد ذكرها في سفر التكوين، وقد شكلت لاحقاً هدفاً، ومركز نشاط، وموضوع تبادل، وإرثاً، ومكاناً مختاراً، إلخ، إلاّ إن كلاً من إبراهيم "أبو الأمة" وموسى "نبيها الأول الكبير"، وهما اللذان تعرّفا على الخالق مباشرة وبصورة حصرية، لم يولدا في أرض كنعان، وإنما قدما إليها من الخارج. وفي الواقع فإننا ـ مثلما يضيف شلومو ـ لا نملك معلومات كثيرة عن الأحداث التي جرت في أرض كنعان خلال المرحلة الممتدة من القرن الخامس إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وهي المرحلة التي دُونت فيها أسفار التوراة واتخذت شكلها المعروف. ومن المعتقد أن تغيّر الطبيعة السياسية لبلاد كنعان، ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الثاني بعد الميلاد، أدّى إلى تغيير تسميتها، بحيث صارت تُعرف باسم بلاد يهودا، من دون أن يعني ذلك اختفاء التسمية القديمة كلياً.

أمّا مصطلح "أرض إسرائيل"، فيبدو أن من الصعب معرفة الفترة التي اختُرع فيها والسبب المباشر لظهوره. ولعل استخدام هذا المصطلح كان ناجماً عن قيام الرومانيين، بعد انتفاضة

اليهود بقيادة بار كوخبا ما بين ١٣٢ و١٣٥م، بحذف اسم "بروفينسيا يوديا" [محافظة اليهودية] ولجوئهم إلى استخدام الاسم القديم "فلسطين"، إلى جانب أسماء أُخرى عديدة. ويمكن الافتراض أن هذا المصطلح الجديد - "أرض إسرائيل" - صار معروفاً منذ تلك الفترة إلى جانب الأسماء القديمة المعروفة وهي "أرض يهودا" و"بلاد كنعان". بيد أن مساحة المكان لم تتحدد دوماً، وإن كانت تمتد بصورة عامة من عكا في الشمال إلى عسقلان في الجنوب، كما أن مناطق عديدة من أرض كنعان التوراتية لم تحظَ بصفة القدسية. وبقيت "أرض إسرائيل"، في نظر مؤلفي الشريعة الشفهية، أرضاً لممارسة تعاليم خاصة، مرتبطة حصرياً بهذه الأرض، مثل: رقابة خاصة على أحكام النجاسة، وتوزيع الأعطيات المقدسة، واحترام أحكام السنة السبتية (الشميتا).

وبعد أن يعود ساند، من جديد، إلى فكرة أن اليهود لم يعرفوا نفياً قسرياً من يهودا بعد تدمير الهيكل الثاني، ولم يبذلوا جهداً "للعودة" إليها، فإنه يقدّر أن المؤمنين بالدين الموسوي صاروا يتزايدون وينتشرون، مع ديانتهم، في فضاء الحضارة الهيلينية الرومانية وفي بلاد ما بين النهرين قبل تدمير الهيكل، معتبراً أنه لم يكن من الممكن أن تقوم علاقة جماهير المتهودين بأرض التوراة على قاعدة "حنين إلى وطن" لم ينحدروا لا هم ولا آباء آبائهم منه.

ولهذا، فضّلت الديانة اليهودية، وبعد هزائمها القاسية على يد الديانة المسيحية، تصميم هوية المؤمنين بها على أساس وعي ذاتي، باعتبارهم "شعباً مختاراً" لا يمارس أي سلطة على مكان محدد، وصار التوق إلى الأرض المقدسة يتعاظم على صعيد روحاني، كلما صارت هذه الأرض أقل واقعية؛ فاليهودية رفضت أن تكون مرتبطة بأي أرض.

في حدود نهاية القرن الثامن عشر، كان عدد اليهود المقيمين في فلسطين يقل عن ٥٠٠٠ شخص، معظمهم في القدس، بينما كان يقيم فيها أكثر من ٢٥٠,٠٠٠ من المسلمين والمسيحيين. وكان هناك في العالم في الفترة نفسها مليونان ونصف مليون من اليهود، وخصوصاً في أوروبا الشرقية. ويخلص ساند إلى أن هذا العدد الضئيل من اليهود الفلسطينيين، والذي شمل جميع الهجرات والحجاج الذين بقوا في البلد، يدل أكثر من أي نص مكتوب على طبيعة علاقة الديانة اليهودية بالأرض المقدسة في تلك الفترة. وخلافاً للأسطورة التي تحكي عنها ببراعة وثيقة استقلال دولة إسرائيل، لم يبرز قط، على مدى ١٦٠٠ عام، أي تطلع يهودي إلى الهجرة إلى صهيون.

نحو الصهيونية المسيحية: بلفور يعد بالأرض

في الفصل الثالث من الكتاب، يشير شلومو ساند إلى أنه منذ نهاية انتفاضة بار كوخبا في سنة ١٣٥م، والتي طالب المنتفضون خلالها بإعادة بناء الهيكل الذي دمره الرومان في سنة ٧٠م، وحتى غزو القدس على يد الصليبيين في سنة ١٠٩٩م، لا يوجد أثر لهجرة إلى المدينة المقدسة من جانب أتباع اليهودية الرابانية. ولم يتجدد الحج اليهودي إلى القدس خاصة، وإلى الأرض المقدسة عامة، إلاّ بعد الغزو الصليبي للبلد. ومع أن هذا الحج قد يكون انعكاساً متأخراً للحج المسيحي، إلاّ إنه لم يفد إلى الأرض المقدسة، ما بين القرن الثاني عشر حتى نهاية القرن الثامن

عشر، سوى عدد محدود من اليهود، مقارنة بعشرات الآلاف من الحجاج المسيحيين. فالمدينة المقدسة كانت بالنسبة إلى اليهودي مخزناً لذكرى غالية تغذّي الإيمان باستمرار، أكثر من كونها موقعاً جغرافياً جاذباً، ربما تفضي زيارته إلى تأخير يوم الخلاص.

ويبدو أن المسيحيين الأوائل لم يؤمنوا بفكرة المكان المقدس المركزي، وذلك على الرغم من أسطورة مجيء يسوع المسيح إلى القدس في يوم الفصح. وفقط، مع وصول هيلينا والدة الإمبراطور قسطنطين الأول إلى القدس في سنة ٣٢٦م، بعد اعتناقها المسيحية، بدأ التقديس المسيحي للمكان. فقد قامت هيلينا ببناء الكنائس الأولى التي أضحت مواقع للحج، وصار يُعترف بفلسطين كأرض مقدسة من جانب مسيحيي العالم أجمع.

ومع أن الإصلاح البروتستانتي الذي انطلق في القرن السادس عشر، أدى إلى الحد من موجات الهجرة المسيحية، إلاّ إن الاهتمام بالأرض المقدسة عاد وتعاظم لدى المسيحيين الجدد بفعل عاملين: ثورة الطباعة، وترجمات الكتاب المقدس من اللاتينية إلى اللغات المحلية التي تحولت إلى لغات قومية. فأتباع الحركة "التطهرية" التي انبثقت عن البروتستانتية في بريطانيا، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، قرأوا التوراة باعتبارها كتاباً تاريخياً قبل أن يفكر الصهيونيون اليهود بالقيام بذلك. وربط هؤلاء المؤمنون بصورة وثيقة بين بعث إسرائيل وعودة أبناء إسرائيل إلى صهيون، وبين الخلاص الذي كانوا ينشدونه. وبحسب هذه النظرة، فإن اليهود، على المدى البعيد، سيتحولون إلى المسيحية، وسيشهد العالم عودة المسيح من جديد. وهكذا، فُتح الباب أمام ظهور "الصهيونية المسيحية" التي اعتنقها فيما بعد عدد من الساسة البريطانيين، مثل أنطوني آشلي كوبر، وكونت شفتسبوري السابع الذي يمكن أن يطلق عليه اسم "هيرتسل الأنغليكاني"، وبنيامين ديزرائيلي الذي كانت المسيحية بالنسبة إليه الاستمرار المنطقي لليهودية القديمة، واللورد بالمرستون الذي طرح منذ سنة ١٨٤٠، فكرة هجرة اليهود الجماعية إلى فلسطين واستيطانهم فيها.

بعد ذلك يشرح المؤلف كيف أن الحكومة البريطانية قررت في سنة ١٩٠٥ منع هجرة يهود أوروبا الشرقية إلى أراضيها، وأن اللورد آرثر جيمس بلفور، الذي كان في ذلك الحين رئيساً للحكومة، هو الذي دعا البرلمان إلى إقرار قانون يحدّ من الهجرة الأجنبية إلى بريطانيا. وكان بلفور هذا من مؤيدي المشروع الذي اقترحه، في سنة ١٩٠٣، وزير المستعمرات جوزيف شامبرلن على ثيودور هيرتسل بإقامة وطن قومي لليهود في أوغندا. ويمكن القول، من دون مبالغة، إن قانون بلفور في سنة ١٩٠٥، والقانون المشابه الذي أُقرّ في الولايات المتحدة الأميركية في سنة ١٩٢٤، بشأن الهجرة وشروطها، قاما بدور في إقامة دولة إسرائيل لا يقل أهمية عن الدور الذي أداه "تصريح بلفور"، إذ ساهم هذان القانونان في تحويل وجهة المهاجرين اليهود نحو الشرق الأوسط.

الصهيونية ضد اليهودية

في الفصل الرابع من كتابه، يؤكد شلومو ساند أن الحاخامين اليهود ظلوا يعارضون، في العصور الوسطى وفي بدايات العصر الحديث وخلاله، هجرة اليهود إلى فلسطين، ذلك بأن تجميع

اليهود، الأحياء منهم والأموات على حد سواء، لن يحدث في عرفهم إلاّ بالتزامن مع يوم الخلاص. وعلى الرغم من التنافس الذي شرع يحتدّ، في القرن التاسع عشر، بين اليهودية التقليدية واليهودية الإصلاحية، فإن ما جمع بين هذين التيارين هو رفضهما القاطع النظر إلى فلسطين باعتبارها ملكاً يهودياً، أو مكاناً للهجرة، أو وطناً قومياً. وبحسب حاخام فيينا الأكبر موريتس غيدمان، الذي طلب ثيودور هيرتسل مساعدته، في سنة ١٨٩٥، كي يتعرّف على الفرع الروتشيلدي في فيينا، فإن اليهودية لم ترتبط يوماً بمكان أو بمرحلة، ولم يكن لها وطن.

ويشير المؤلف إلى أن الحاخامين في أوروبا الغربية والوسطى، سواء أكانوا الإصلاحيين أو التقليديين، عارضوا أفكار ثيودور هيرتسل، الأمر الذي دفعه إلى الرهان على حاخامي أوروبا الشرقية الذين كانوا يستخدمون، خلافاً لحاخامي أوروبا الغربية والوسطى، لغتهم الخاصة اليديشية. وفعلاً، فإن "التقليديين" الوحيدين الذين شاركوا في مؤتمر بال (بازل) الصهيوني الأول في سنة ١٨٩٧م، كانوا من أعضاء حركة "همزراحي" التي ستتشكل لاحقاً، والذين قدم معظمهم من الإمبراطورية الروسية. ويضيف المؤلف أنه كما هو معروف، فإن وضع اليهود الديموغرافي والثقافي، في شرق أوروبا، كان مختلفاً عن وضعهم في غربها. ففي أوروبا الشرقية، كان الملايين من اليهود لا يزالون يعيشون منفصلين عن جيرانهم، في أحياء ومناطق معزولة، وكانوا، خلافاً ليهود أوروبا الغربية، يمتلكون أنماط تعبير تعبّر عن ثقافة شعبية مميزة ومفعمة بالحيوية. ونظراً إلى أنهم لم يكونوا مواطنين في الإمبراطورية الروسية وإنما مجرد رعايا، فإنه لم تتطور بين صفوفهم قومية محلية، غير يهودية. وإذا أضفنا إلى ذلك بروز رُهاب اليهود في تلك المناطق تحديداً، فسندرك كيف أن الصهيونية أقامت ركائز لها بينهم وحققت نجاحاتها الأولى. وقد رأى الصهيونيون المتدينون الأوائل في الدولة اليهودية حلاً لضائقة حقيقية، وليس تجسيداً لحقّ إلهي، ولذا، وافق أنصار حركة "همزراحي"، وخلافاً للمتعصبين العلمانيين من أنصار استيطان فلسطين، على مشروع أوغندا.

ويخلص ساند، في هذا الفصل، إلى أن الصهيونية الاستعمارية التي استعارت من التلمود مصطلح "أرض إسرائيل" الديني، لم ترضَ بالحدود الشرعية التي ترتبت على هذا المصطلح. فالأرض التي تحددت بصفتها مقدسة كانت ضيقة، تمتد من عكا إلى عسقلان، ولم تكن متواصلة، ولا تليق أبداً بأن تكون وطناً قومياً. وفي المقابل، كانت حدود الأرض الموعودة أكثر جاذبية، وتسمح بتصور خلق أرض واسعة لليهود، جديرة بهذا الاسم، وتتناسب مساحتها مع المساحات الشاسعة التي سيطر عليها الاستعمار الأوروبي غداة القرن العشرين. فقد ورد في سفر التكوين أن هذه الأرض ستمتد من النيل إلى الفرات، ذلك بأن مؤلفي أسفار التوراة الأولى، الذين قدموا من بابل، أدرجوا جزءاً من بلادهم الأصلية ضمن الأرض الإلهية الموعودة.

وبينما بقيت حدود الأرض، في نظر الصهيونيين الأوائل، فضفاضة وغير محددة بدقة، كانت حدود الوعد التوراتي واسعة جداً وغير قابلة للتحقق في نظر مؤسس الدولة دافيد بن ـ غوريون، وزميله في الكتابة يتسحاق بن تسفي. أمّا حدود الوصايا التلمودية، فكانت ضيقة جداً، لا تتناسب مع طبيعة البلد، ولا تستجيب لمتطلبات أمة كبيرة. وقد وجد هذان الكاتبان،

في كتابهما: "أرض إسرائيل في الماضي والحاضر"، أن من الملائم ترسيم حدود أرض إسرائيل بصورة موضوعية، على أسس مادية وثقافية واقتصادية وإثنوغرافية، على النحو التالي: "من الغرب البحر الأبيض المتوسط، ومن الشمال نهر الليطاني بين صور وصيدا... ومن الجنوب خط عرضي يمتد بصورة مائلة من رفح إلى خليج العقبة... ومن الشرق بادية الشام... وكلما ضعف تأثير الصحراء التدميري... تنزاح حدود البلد في اتجاه الشرق، وتتوسع أرض إسرائيل" (ص ٢٧٥).

وهكذا، كانت أرض إسرائيل تشمل، في نظرهما، الضفة الشرقية لنهر الأردن، والعراق كما تحدد، ودمشق، علاوة على منطقة العريش (على الرغم من وقوعها ـ وفقاً لهما ـ خارج حدود "فلسطين التركية").

خلاصة

إن أسطورة الشعب اليهودي الهائم على وجهه في الأرض، والمنفي من وطنه قبل ألفي عام، والمتطلع إلى العودة إليه في أول فرصة، كانت تنطوي، كما يرى ساند، على منطق فعلي، على الرغم من أنها استندت كلياً إلى تخيلات تاريخية: فالتوراة ليست نصاً وطنياً، تماماً كما أن الإلياذة والأوديسة ليستا نتاج لاهوت توحيدي. والفلاحون الذين كانوا يقطنون بلاد كنعان لم يمتلكوا وطناً سياسياً، لأن مثل هذه الأوطان لم تكن قائمة في العصر القديم في الشرق الأوسط.

ولم يُقتلع السكان المحليون الذين بدأوا يعتنقون الإيمان بإله واحد، من مكان إقامتهم قط، فهم غيّروا أشكال إيمانهم فقط، كما أنه لم يكن هناك تشتت في العالم لشعب مختار، وإنما كان هناك فقط توسع وانتشار لدين جديد دينامي، صار له أتباع كثر. ومع أن معتنقي اليهودية والمتحدرين عنهم عبّروا عن حنين شديد، وتطلّع قوي إلى المكان المقدس الذي كان من المفترض أن ينبلج منه الخلاص، إلاّ إنهم لم يطرحوا مطلقاً بجدية فكرة الهجرة إليه، ولم يختاروا هذا الطريق. ولم تكن الصهيونية قط استمراراً لليهودية، وإنما كانت نقضاً لها، ولذا فإن هذه الأخيرة رفضتها كلياً. ومع ذلك، برز منطق تاريخي ما، احتوى الأسطورة وساهم في تجسيدها جزئياً.

إن دخول النزعات القومية التي تطبعت بطابع الرُّهاب من اليهود في أوروبا الوسطى والشرقية بزخم إلى مسرح الأحداث، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ترك تأثيره في جزء صغير من الملاحقين اليهود الذين تبنّوا مبادئ المركزية الإثنية. وهذه الطليعة الصغيرة التي استشعرت المخاطر المحدقة باليهود، راحت ترسم لهم صورة أمة حديثة، وفي الوقت الذي حددت لهم المكان المقدس، رسمت صورة مكان قديم ولدت فيه القبيلة "الإثنية" وكبرت. وقد شكّل صبغ الدلالات الدينية بالإقليمية القومية أحد أبرز نجاحات الصهيونية، حتى إن لم تكن أصيلة تماماً في ذلك، ذلك بأن المسيحية، والتطهرية منها بصورة خاصة، كانت حاضرة خلف الكواليس في اللقاء التاريخي بين رؤية "بني إسرائيل"، باعتبارهم قومية، وبين المشروع الاستيطاني.

وكانت فكرة استيطان الأماكن القاحلة تنطوي على منطق ما في الشروط السياسية التي سادت في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وقد جعل عصر الإمبريالية، الذي

كان في أوجه، نجاح هذا المشروع ممكناً لأن البلد المشتهى كان يقطنه سكان أصليون مغيّبون، وبلا هوية قومية. ومن المحتمل أنه لولا إغلاق بوابات الغرب، لم يكن بناء الـ "إثنوس" المتوهم، وتوجه أعداد من أحفاد اليهود نحو فلسطين، قد تحققا. بيد أن انسداد الخيارات الأُخرى أجبر، في نهاية الأمر، قلة من المقتلعين على التوجه نحو أرض لم ينظروا إليها، في البدء، على أنها موعودة. وهناك، كان عليهم "إزاحة" سكان محليين بدأوا للتو فقط، بتثاقل وتأخر كبير، بارتداء حلة قومية. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

السياسة الفلسطينية
وعملية سلام الشرق الأوسط

غسان الخطيب

٢٧٨ صفحة ١٠ دولارات